كريكور زوهراب

دين المشنوق

قصة قصيرة

تقديم وترجمة

نظار نظاريان

كريكور زوهراب هو من أكبر الشخصيات الأدبية والسياسية والقومية عند الأرمن، فهو أكبر كاتب قصة قصيرة في الأدب الأرمني دون منازع. مناضل عنيد، ومكافح شديد المراس في سبيل الحق والعدالة دون تمييز بين الأجناس والأديان. عالم في القانون يشار إليه بالبنان، وخطيب سياسي فصيح يقارع الحجة بالحجة، إنه شخصية فذة صاحب مواهب متعددة الجوانب مختلفة الأطراف.

ولد في اسطنبول، ٢٦ حزيران سنة ١٨٦١. تلقى تعليمه الثانوي في مدارسها، وتخرج وهو في الحادية والعشرين من عمره من المعهدين الفرنسيين العاليين باختصاص مهندس من الأول وبالقانون من الثاني. أصدر كتابين في فقه القانون عام ١٨٨٣ أحدهما باللغة التركية والثاني باللغة الفرنسية طبع في باريس، يدافع فيهما عن الحريات الأساسية العامة والخاصة للشعب والأفراد، مستنكراً الاستبداد والظلم، كما برز في مجال المحاماة وعين استاذاً للقانون الجزائي في كلية الحقوق في اسطنبول. اشتهر في المحاماة شهرة لا نظير لها، فكان قوي الحجة، شديد الجرأة فولاذي المنطق- كما قيل عنه-. أنقذ حياة المئات من موكليه من المناضلين الثوار، وبسبب ذلك ألقي القبض عليه عدة مرات، وحتى السلطان عبد الحميد كان يود التخلص منه بابعاده عن اسطنبول. في عام ١٩٠٥ منعته السلطات الحميدية من مزاولة المحاماة بسبب دفاعه عن ثائر بلغاري تعرض للضرب والتعذيب من قبل السلطات، فغادر زوهراب تركيا إلى أوربا.

عاد زوهراب إلى تركيا بعد انقلاب الاتحاديين سنة ٩٠٨ ظناً بأن الأوضاع الحميدية قد تبدلت لكنه كان مخطئاً. انتخب نائباً في البرلمان التركي منذ عام ١٩٠٨ حتى ١٩١٥ دون انقطاع، فكان أحد أبرز الخطباء في البرلمان لا يجاريه أحد في الفصاحة والبيان. يدافع عن قضايا الشعب بصورة عامة وعن قضية قومه بصورة خاصة، حتى جاءت المذابح التركية للأرمن فتقدم زوهراب إلى البرلمان بشكوى شديدة لما يُرتكب من الظلم بحق الشعب الأرمني، وبخاصة إلى ديكتاتور زمانه طلعت باشا. وفي اليوم التالي في ٢٠ من أيار القي القبض على زوهراب عام ١٩١٥ وسيق إلى المنفى والذبح مع النائب الأرمني الثاني في البرلمان وارتكيس. لقد نصحه بعض من أبناء قومه بالهرب إلى الخارج لانقاذ حياته لكنه رفض الهرب قائلاً:

«لمن أترك هذا الشعب المسيّب؟ لا، لا استطيع الهرب. واجبي أن أقف مع شعبي حتى المعقل الأخير...». وفي ٧ تموز قتل بأبشع صورة يتصورها الإنسان.

المؤرخ التركي أحمد رفيق يقدم مقتل زوهراب على الشكل التالي مع مقابلة اجراها مع المجرم الذي قتل زوهراب. سأل المؤرخ التركي المجرم:

- حسناً هذا المدعو زوهراب و... غيره. ماذا حدث لهم. لـ آآآ، ألم تعلم، لقد قتلتهم جميعاً.

(ونفخ دخان سيكارته إلى الأعلى ثم مسح بيده اليسرى شاربه واستمر في حديثه).

- كانوا آتين من حلب، فصادفناهم في الطريق، حاصرنا عربتهم فوراً. عرفوا إنهم سيُقتلون. قال وارتكيس: (حسناً يا أحمد بيك إنكم تعاملوننا بهذا الشكل، ولكنكم ماذا ستفعلون مع العرب؟ إنهم ليسوا براضين عن معاملتكم لهم أيضاً). فقلت له:

- هذا ليس من شأنك يا بهيم. وفجّرتُ مخّه برصاصة من سلاحي الموزر، ثم قبضت على زوهراب ورميته أرضاً تحت أقدامي، وحطمت رأسه بحجرة كبيرة، ظللت أضربه أضربه وأضربه حتى مات).

هكذا قتل المجرمون هذه الشخصية الأدبية الفذة، كما قتلوا زعماء ومفكري العرب المناضلين في بيروت ودمشق.

لا يمكن أن نفي حق هذا الأديب بهذه الأسطر القليلة. لقد كتب زوهراب الشعر والنقد الأدبي والقصة القصيرة والطويلة إلى جانب الرواية الطويلة كما كتب الصور التحليلية عن الشخصيات الأدبية بأسلوب ساخر أحياناً ومُعَرٍّ أحياناً أخرى. ولقد امتاز بموهبة قصصية حتى أصبح رائداً من رواد هذا الفن وعلماً من أعلام القصة في الأدب الأرمني وحتى العالمي بلا مبالغة، إذ ترجمت قصصه إلى أكثر من ثماني وعشرين لغة من اللغات الحية في العالم. فهو لا يقل موهبة عن موباسان أو

تشيكوف. وتتميز قصصه بالواقعية الفنية التي تحلل الحادثة للوصول إلى جوهر الموضوع. وله أسلوب خاص يمتاز به عن جميع الكتاب ومقدرة فنية في التعبير هي نسيج وحدها، وتدور مضامين قصصه في كافة مجالات الحياة الانسانية، فمن الطبقات الشعبية إلى أعلى مستويات البرجوازية أو إلى معاناة الطبقة المتوسطة التي تتألم بصمت، والصراع القائم بين الخير والشر، بين الحقيقة والكذب والخداع، فهو يزيل الأقنعة المزيفة عن الوجوه لتبيان الحقيقة الناصعة في سبيل العيش بكرامة وعزة، ولكن المادة هي التي تذل الإنسان أو تبطره وتفسده عندما يخرج عن انسانيته. صور بكل دقة حياة الفقراء والأغنياء في اسطنبول - الحياة كما هي - واستصرخ الضمير الإنساني في قصصه - أصوات الضمير - وعبر بكل صدق واخلاص عن معاناة الإنسان اليومي في - آلام صامتة. كما صور ضياع الشباب في روايته « جيل منقرض ».

زوهراب من بناة المدرسة الواقعية الفنية التحليلية في الأدب الأرمني. وقد صدرت له من الأعمال الأدبية الكتب التالية أثناء حياته أو بعد وفاته:

١ - أصوات الضمير - قصص ١٩٠٩ في اسطنبول
٢ - الحياة كما هي - قصص ١٩١١
٣ - آلام صامتة - قصص ١٩١١
٤ - صفحات من يوميات مسافر مذكرات ١٩٢٢ في أزمير
٥ - جيل منقرض - رواية ١٩٢٤ - اسطنبول
٦ - شخصيات معروفة - مقالات ١٩٣٢ باريس
٧ - من حياتنا - مقالات ١٩٤٥ القاهرة
٨ - عن الأدب - مقالات ١٩٧٣ يريفان

دين العنق

- أ -

حقيبة من الجلد الأسود كبيرة نسبياً كان يحملها صباحاً ومساءً، وهو يسير في الأزقة. كان هذا الكيس الجلدي المتين رفيق عمره الذي لا يفارقه، يحمل فيه كلّ مساء حاجات بيته، من الخبز واللحم أو الفاكهة إلى طفلتيه الصغيرتين اللتين كانتا تحاصرانه أمام باب المنزل وهذا الكيس الزاخر بالآمال المحقق للوعود.

كانت أتعاب هذا الرجل، وما يكسبه بعرق جبينه، وكده في جوف هذا الكيس. فيا له من برميل لا يشبع، كان يحاول ملأه بجدٍ ودأب منذ ثلاثين سنة، لكن بدون جدوى. ففي جوف هذه الحقيبة كان كل نضال حياته وكفاح عمره. إنها قضية العيش، قضية الخبز اليومي التي كانت تلك الحقيبة تطفح بهولها، بفراغها الأبدي دوماً. وفي جوف هذه الحقيبة أيضاً كانت أفراح هذا الرجل وآلامه وذكريات الماضي.

كانت لذلك الكيس أيام سعادة، كما كانت له أيام تعاسة، كحظ صاحبه تماماً، في تبدل مستمر، كأنها - الرجل والكيس - كانا يحملان الروح نفسها.

من منهما كان السيد؟ بعد ثلاثين سنة عندما كان الفشل يحاصره بحلقاته الحديدية، كان هذا الرجل يدرك أن ذلك الكيس المستبد الظالم بقي سيده دوماً.

- ب -

الآن كان هوسيب آغا رجلاً متوسط القامة أشيب الشعر ملتحي الوجه، وقد هبط من مستوى تاجر الجملة إلى بائع بالمفرق، إلى وسيط ينتقل من حانوت إلى حانوت، ومن باب إلى باب، حاملاً معه نماذج من نسيج البصمة والخاصة والخام الأبيض من المطلوبات والمعروضات التي ما كان البائع والمشتري ليتفقا على أسعارها المعروضة.

من قال بوجود انسجام بين هذين الطرفين، بين البائع والمشتري؟ عبثاً كان يحاول هوسيب آغا طيلة يومه لإيجاد الوفاق بين هذين الطرفين، وهو يقدم الاثباتات المقنعة للمشتري بأن البضاعة رخيصة الثمن، ثم يحاول اقناع البائع بأن بضاعته تساوي أقل بكثير من السعر الذي يطلبه. لا، لا، كان الطرفان يصران على أسعارهما. فيقع هوسيب آغا في هوة اليأس والخيبة. كان يعرف حق المعرفة أزمة التجارة عندما كان تاجراً مرموقاً. ومن جديد كانت هذه الأزمة تتحكم في معيشته - معيشة الوسيط الصغير - وتهدده بالقضاء عليه.

آه لو كان وحيداً لهان الأمر. لكن ابنتيه كانتا تثقلان كاهله بكل ما تملكان من سحر صباهما وجموحهما. لم تبقيا طفلتي الأمس بل أصبحتا صبيتين بالغتين تفيضان ظمأ إلى الرغبات الحقة البريئة لمباهج الحياة وتطلعاتها.

ابنتاه هاتان اللتان تشكلان كل سعادته كانتا الآن تثقلان كاهله، بابتسامة فتاة ١٤ - ١٥ البريئة التي كانت تبدو لنظراته الأبوية مليئة بالتأنيب والتوبيخ. كان يدخل الدار كمرتكب ذنب ما، امام هاتين اليتيمتين المحكومتين بالحرمان. كان يعود إلى الدار مطأطىء الرأس كالمذنب محتفظاً دوماً على ملامح وجهه بالمظهر الكاذب للسرور، مخفياً تحت هذا القناع ألم الإنسان العاجز وحيرته.

- ج -

تقع دارهم الصغيرة على مرتفع اسكودار، في جهات محلة ايجادية، حيث كانوا يسكنون، هم ثلاثتهم، الأب مع ابنتيه، لقاء مئتي قرش شهري. الأم متوفاة منذ أمد بعيد. إن صورة المرأة الشابة المعلقة على حائط الغرفة الصغيرة المطلة على الزقاق هي صورتها. كانت قد توفيت أيام أن كان زوجها في يسر، ماتت من مرض في الصدر والذي يمكن كشفه من بياض الوجه المفتقر إلى الدم، البياض البادي في الصورة. لكنّ ذكراها حية، فلا تمر يوم دون أن يتذكروها. في الأماسي عندما تنسحب البنتان إلى غرفتهما يبقى الزوج أمام صورة امرأته المتوفاة في عزّ الشباب، يبقى وحيداً صامتاً، ويترقب التاجر المفلس من العيون الناظرة إليه دون رأفة، من إطارها الذهبي، كلمة تشجيع، إنها دعمٌ منتظرٌ من الطرف الآخر للقبر.

تتناقص الآن قوته المعنوية يوماً عن يوم، مثل رأسماله المادي في الأيام الماضية. فهو يشعر الآن أن شجاعة قلبه تستهلك قليلاً قليلاً وتنتهي. الحقيبة لا تزال بين يديه المرتجفتين في كل صباح،

والتي كثيراً ما يعود بها دون أن يملأها تماماً. في الصباح يتسكع على رصيف المرفأ قرب أولئك التجار الذين يكلفونه ببعض الأعمال. كمن يقدم صدقة لشحاذ ما، وأحياناً يجد في نفسه الجرأة للتدخل في أحاديثهم واعطاء الرأي، لصالح المتحدث دوماً. لا يسير معهم على خط واحد وإنما يتأخر عنهم قليلاً ومحفظته لا تفارق يده. وإذا صادف أن تضرر أولئك الناس في التجارة بسبب أحد ما، فإنه يحتدّ ضدَّ ذلك الشخص أكثر منهم، فيصفه بالمخادع والكذاب، لأنه أتى على بضائع صاحبه التاجر، ذلك الرجل الشريف، وأنه يرفض تأدية أمواله. في مرة أخرى، في لحظات سرورهم، كان يبهجهم بحكاياه الصغيرة الجميلة ويضحكهم، آملاً أن يُمْنح في اليوم التالي عملاً صغيراً.

كان التجار يحبون هذا الرجل الأبوي، لأنه لم يكن ثقيل الظل كغيره، ولم يطالبهم بحقه في العمولة كمن يطالب بحق ما، فكان يطأطىء رأسه لكل حسم مقترح.

- د -

كان كبار تجار نسيج البصمة يسيرون الآن بتؤدةٍ، وهم يتحدثون مثقلين جميعاً بهموم بيع بضائعهم. كان التجار الفرس- وهم الزبائن الأساسيون- قد أخذوا يفتحون عيونهم للأنسجة الكاسدة، وللألوان الكالحة، فالأرباح السابقة من أنسجة الأميركاني، الناقصة وزناً وقياساً لم يبق لها وجود الآن. كان التجار يبحثون عن وسائل جديدة للتوفير، فبعد الرسوم الجمركية، ومصاريف المكتب، كانت أجور العمولة تبدو لهم ثقيلة الوطأة. ما الحاجة إلى الوسيط؟ أما كان باستطاعتهم شراء البضائع وبيعها شخصياً دون وسيط أو عميل. لأن أسباباً أخرى كانت ترد لتقوي هذا القرار. الوسيط وسيط أولاً وآخراً، فهو ليس صاحب البضاعة، فلا يقدر على بيان قيمة البضاعة مثل صاحبها، ولا يتحمل همها دوماً. كان هوسيب آغا وهو يسير من خلفهم قابضاً على محفظته السوداء يرتجف الآن.

- هوسيب آغا، نحن لا نقصدك- كان التجار يطمئنونه- إنك من رجالنا.

كان المسكين يتنفس الصعداء. لكن أعماله كانت في تقهقر. كان تحصيل العمولة يغدو عذاباً ألياً، كانت الديون تتراكم حوله، في القرية، وفي السوق، وفي كل مكان. كان ملبسه لا يزال نظيفاً أنيقاً، فلم يكن باستطاعة أحد أن يكتشف، من مظهره الخارجي، انهياره الرهيب.

كان لا يزال مثابراً على حمل المحفظة، إنها الآن حمل بلا فائدة، في الذهاب والإياب، لكن تَرْكَها حياءً وإلقاءَها جنباً، كان هو الاعتراف باليأس أمام الناس، ماذا كان الناس سيقولون بعد ذاك، عندما يرونه فارغ اليدين؟

بعدئذ دفعه اليأس إلى اقتراض ليرتين ذهبيتين من ذلك التاجر الذي كان يُعَدّ من أتباعه، لكنه أجيب بالرفض. كان مديناً له بخمس ليرات ذهبية، وكان عليه- قبل كل شيء- تسديد ذلك الدين. في ذلك المساء باع ساعته النحاسية الصغيرة بثلاثين قرشاً، واستطاع بذلك ملء المحفظة من جديد لحدٍ ما.

- هـ -

في البيت كان يبدو فرحاً مسروراً، كانت ابنتاه تطالبانه أحياناً، بمعلومات عن أحواله، بينما كانت تتحرك التكهنات والحدس في سريرتيهما.

كانت الكبرى تقول:

- كيف تسير الأعمال يا أبي؟

أما الصغرى، وهي فتاة ناعمة كالسوسن، بعينيها الزرقاوين، وهي صورة صادقة عن أمها، فكانت تضيف:

- لا تتأخر بهذا الشكل.

كان الأب يضحك. كلا، فالأعمال لم تكن سيئة، وبإذن الله كانت ستتحسن بعد الآن.

- غداً، عد باكراً، لتستصحبنا إلى النزهة.

فكان الأب التعيس يَعِدُ، يَعِدُ بكل شيء. كان سيأتي باكراً، ليستصحبَ هاتين اليتيمتين المسكينتين المحرومتين إلى النزهة، واللتين كانتا تمضيان أحلى سنوات عمرهما في الفقر. تصوروا رحلة ما، يغدو أجمل منظر فيها مَمرُ نفقٍ، بحيطانٍ حجرية مظلمة، ولا تستطيع أبداً رؤيةَ شعاع النور المُنْتَظر من الطرف الآخر.

في الصباح الباكر، الباكر جداً، كان يذهب إلى اسطنبول على متن أول باخرة، وهو يضغط بساعده المنهك على محفظته المفرغة. هذا العدو الأبدي، الجائع الأبدي الذي لم يكن قد شبع أبداً خلال ثلاثين سنة ونيّف. كان يضغط عليها، هناك تحت ابطه، كأنه كان يريد خنقها، خنق ذلك البطنِ الخاوي، والقضاء عليه نهائياً.

لا أعمالَ في اسطنبول. ونفدت البقيةُ الباقية من قيمة الساعة في التنقلات، وكانت اللحظة تقترب بسرعة رهيبة، منقضةً عليه، حيث كان سينفذ آخر ما تبقتْ لديه من البارات الثلاثين، إنها مصروف الركض وراء أملٍ ما، بالتنقل من كوز قونجوق إلى اسطنبول- لأنه الآن حتى الركض وراء الأمل يتطلب المصاريف-.

- وفي ذلك الحين؟.

هذا السؤال الذي كان يشغل ذهنه، وما كان بقادر على التهرب من الاجابة عليه. فكان السؤال يواجهه بأحرف كبيرة ضخمة، يكتب في الفضاء، يسير أمامه، ملتصقاً في نظراته أينما حل.

- و -

أيمكن أن يتشوق إنسان إلى ثمن رغيف من الخبز، أو يتسمّر في مكانه، دون حركة، لئلا يدفع أجرة ركوب الباخرة؟

كان هوسيب آغا في هذه اللحظة يقلب في ذهنه أوجه هذه المسائل، ساعياً إلى حلها، وهو يسير في الزقاق، شاعراً بوجود محفظته الفارغة. يتلمسها بأنامله، ويخيل إليه أنه انتقل إلى داره فجأة. إلى قرب ابنتيه الحلوتين، وللحظة ما، كان ينتابه شرود فكري ينسى فيه نفسه، ينسى وضع المتسول المحتاج إلى كسرة من الخبز. الوضع الذي هو فيه، حتى يصبح غنياً مليئاً لبرهة ما على الأقل. كان يترك تلك الدار الصغيرة، ليقدم لابنتيه مسكناً أكثر

أبَّهَةً، وليقدّم لها ألبسةً جديدةً، وقبعاتٍ، أكثر من متطلباتها متطلبات الصبايا. فكان يعطيها أكثر بكثير من المطلوب، كان يشعر ببهجة عندما يرى فرحتها، ما أسهلها من سعادةٍ وما أصعبها!.

وكانت المحفظة تحت إبطه ترتجف بوجهها الجلدي الغليظ المثقوب، وتوقظه، تجرُّهُ وتشدُّهُ إلى الحقيقة، حقيقة مشترٍ طواه الجوع.

بعدئذ بدأت مبتكرات جديدة للعيش، اغراض منزلية صغيرة غير ملحوظة، أخذتْ من البيت بحجة التصليح، وكراسٍ بيعت بأثمان بخسة. تقديم طلباتٍ إلى حوانيت جديدة، كل يوم لحانوت لتأمين الحاجات الضرورية للبيت. معارف وصداقات تبنى للشراء بالدين. ثم انتظارات قرب الآخرين للحصول على بطاقة الباخرة بأموال الغير. كلها محاولات بدون جدوى، لملء محفظته، أو لملء جزءٍ منها على الأقل. محفظته المِلْحاحة في الطلب، والتي لا يزال يحملها معه دون أن يعرف سبب ذلك، دون حاجة إليها، وبحركات لا يدركها.

- ز -

في ذلك الصباح ناولته ابنته الكبرى محفظته وهي تقول:

- (ولا تنس اللحمة كالبارحة، مع قليل من الفواكه. والجبنة أيضاً).

كانت مستمرة في سلسلة طلباتها البسيطة التي لا تنتهي، من وراء أبيها الذي كان يستعجل في الابتعاد.

كانت المحفظة تهتز مع خطواته المستعجلة دوماً، مطلقةً أصوات بطنٍ خاوٍ، وأنات البكاء. إن المتليكات الثلاثة التي كان قابضاً عليها بقوة في جيبه خشية من هول فقدها، كانت ستوصله إلى اسطنبول. كيف كان سيعود مساء؟ كان نادماً، كم كان نادماً على سكناه في اسكدار التي لا يمكن الوصول إليها مشياً على الأقدام. ولا يكفي امتلاك النية الحسنة والشجاعة العظمى في العالم ليستطيع العودة إلى البيت، حتى فارغ اليدين.

جلس في الباخرة في طرف ناء غير مرموق، تسود القذارة فيه مع القمل. ركز المحفظة جيداً بقربه وأخذ يصلح أجزاءها المدعوكة بكل اهتمام. ثم جلب انتباهه صوت محركات الباخرة: بوف، بوف، بوف، حركت هذه النغمة فضوله، كانت للدواليب، أثناء اكمال دورانها وعند وصولها إلى نقطة ما، حالة تشبه التردد قبل أن تبدأ بدورة جديدة. وبهذا الشكل كانت تتشكل نغمة خاصة لها: بوف بوف بوف- بوف بوف... بوف. كان يتابع هذه النغمة بذهنه وهو يشعر بلذة. ففي تلك اللحظة لم يكن في ذهنه شيء غير ذلك الصوت الغامض. من كان هو؟ عن أي شيء كان يبحث في داخل هذه الباخرة، إلى أين كان سيذهب، لم يكن يدري، حقاً إنه لم يكن يدري.

في اسطنبول قابل عملاءه، فلم يجد إلا وجوهاً عابسة قاسية سبب له مجرد رؤيتها تلعثما في لسانه: كن شجاعاً، قل لهذا الرجل القوي الذي يفتح الخزانة الحديدية ويغلقها بأنك قد وعدت أبناءك بأن تجلب لهم الطعام في هذا المساء. كلا. لم يستطع قول ذلك الكلام.

تسكع في السوق دون أن يقول شيئاً لأحد، نظر إلى مداخل الحوانيت قليلاً ثم وقف أمام واجهات الصياغ مدة ربع ساعة تقريباً، فأبدى اعجابه بالمجوهرات. إنه لم يستطع قط إن يقدم واحدة منها إلى ابنتيه. تذكر أن ابنتيه كانتا تنتظرانه. سأل عن الساعة. كان مساء. في ذلك الوقت أخذ يعدو. كان قد تأخر، فلم يكن لديه وقت للترددات الفارغة والتكبر. كان بحاجة إلى الخبز، وكان سيطلبه من أول شخص يصادفه من معارفه. عجباً. هو الذي كان يعرف الكثير من الناس لم يصادفه أحد منهم. لا شك أنه كان يعرف ذلك الرجل الذي يسير من الجهة المقابلة. كان تاجراً من منافسيه في وقت ما. ولكن التحية كانت مقطوعة بينهما منذ زمن بعيد، بعدما أصابه الفقر. أما هذا الذي مر الآن بقربه بخطوات سريعة، فكان يعرفه أيضاً. كان في وقت ما قد كفله، ولكّنه قبل أيام رفض إقراضه مجيدية واحدة. كان يمر به الآن مخفياً وجهه كأنه يحاول الهرب منه. رجل عجوز فقط حيّاه، إنسان أتعس منه.

وصل إلى الجسر وتوقف عن السير، لم يستطع المرور منه، لأنه لم يكن يملك عشرة بارات أجرة اجتياز الجسر. في تلك اللحظة شعر بأن شيئاً ما كان ينقصه. استجوب نفسه فوجد السبب: كان قد نسي المحفظة في مكان ما. رجع عائداً، وهو يعدو، ليفعل ماذا؟.

- ح -

كان يطفو على سطح البحر، يتهادى، يتايل، مستلقياً على ظهره فوق سطح الماء بكامل طوله. كان هذا رجلاً سميناً، بعينين كبيرتين، كأنها مندهشتان، تحدقان دون أن ترفا، في السماء بعناد، حيث كان القمر بدراً يسطع قطعة نقد فضية كبيرة.

وقطعة من جلد محفظة أسود كانت مشدودة بقوة على عنق الرجل، بقيت على وجه الماء تعوم معه، وبين الحين والآخر تغوص به قليلاً إلى الأسفل. ثم لا يلبث رأسه أن يخرج على السطح محاولاً التخلص من ثقل المحفظة.

كانت هذه الجثة بمحفظتها المعلقة من عنقها، على سطح مرآة البحر الفضية تشبه سفينة تجر خلفها زورقاً من البعيد جداً. كانتا داخل الماء موثقتين ببعضهما كما كانتا في الحياة، لم تفارقا بعضهما أبداً، كانت الرابطة بينهما باقية بأمانة في كل مكان. إن هذه المحفظة المليئة بالحجارة لم تعد بعد تخشى التفريغ، إنها كانت بطناً قد شبع وارتوى. انتفاخة ناعمة، فلم يكن مكانها تحت إبط الناس، حيث كانت قد بقيت سنوات وسنوات مطوية، مضغوطة، مخنوقة الأنفاس. كلا. إن تلك المحفظة، بكل عنادها وفراغها الموئس كانت تجسد حتماً دينَ أعناق الناس، فكان إذاً مكانها الحقيقي هو عنقُ ذلك الرجل، هناك تماماً حيث كانت تستقر الآن.

كمثل المطرود منذ ثلاثين سنة، الذي يفرح ويبتهج، لأنه وجد، لأول مرة، مكانه الحقيقي واستقر فيه، كانت المحفظةُ، بجلدها الغليظ، تتمسح بوجه الرجل وتمسده مع حركة كل موجة من تموجات البحر.